﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

[الحج: 78]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نشر دعوة الحقّ سعيًا في نفع جميع الخلق

لمّا أمر الله سبحانه في الآية السّابقة بتطهير النفس، وملئها بعبادةِ الله تعالى في الصّلاة خصوصًا والعبادة عمومًا، ثمّ الأمر بفعل الخير لعموم الأمّة، ناسب أن تتابع الأوامر في هذه الآية بالنّفع الإنساني بتبليغ الرّسالة المحمدية للنّاس جميعًا، وذلك بالدّعوة إلى الإسلام والجهاد وتذليل العقبات في سبيل هذه الدّعوة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾: (جهد) أصله المشقّة، ثمّ يُحمل عليه ما يقاربه، وأصلُ (الجُهدِ) الطّاقةُ والمشقّةُ، يُقال: جاهد العدوَّ مجاهدةً وجهادًا: قاتله، والجِهاد والمجاهدة: استفراغ الوُسعِ في مدافعةِ العدوِّ، فالجهادُ استفراغ ما في الوُسع والطّاقة من قول أو فعل، والمعنى في الآية: محاربة الأعداء[2].

2) ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: (جبي) أَصْلٌ يدلُّ على جمع الشيء والتجمّع، يقال: جَبَيْتُ المال أجبيه جِبايَةً، وجبيت الماء في الحوض[3]، واجتبى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جهد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).

الشّيء: اصطفاهُ واختارَهُ لنفسهِ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6][1]، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، واجتباءُ اللّه العبدَ: تخصيصهُ إيّاه بفضل إلهيٍّ، يتحصّل له منه أنواعٌ منَ النِّعَمِ بلا سعيٍ منَ العبدِ، وذلك للأنبياءِ، وبعض مَن يُقاربُهُم منَ الصّدّيقينَ والشّهداءِ[2]، فمعنى اجتباء اللّه للمسلمين اختيارهم لحمل أعباء دينه ونشر تعاليمه في الخلق.

3) ﴿حَرَجٖ﴾: (حرج) أصلٌ يَدُلُّ على تجمُّع الشّيء وضيقه، وقَدِ استُعملَ في الشكِّ؛ لأنَّ النَّفس تَقلقُ مِنْهُ، ولا تَطْمَئِنُّ، والحَرَج أيضًا: الإثْمُ؛ لأنَّه يوقِعُ في الضّيق، والحَرَجُ: الضّيق، ومَكانٌ حَرِجٌ وحَريج: ضيِّق، ورجل حَرَج وحَرِج: ضيِّقُ الصدْر، فقولُهُ سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، أيْ: ما جعل عليكم فيه ضيقًا[3].

4) ﴿مِّلَّةَ﴾: (ملّ) أصلٌ يدلُّ تصريفاته على تَهيُّؤٍ أو تهيئة بالامتداد لأجل الانتفاع والصّلاح، ومنه قولهم: طريق مَليل، وهو الممتد المهيّأ، وذلك لكونه قد سُلك حتى صار مَعْلمًا[4]، والملّة: الطّريقة المسلوكة[5]، وتُطلق على الدّين، وتجمع على مِلَلٍ، مثل: سِدْرَةٍ وسِدَر[6]، وحقيقة الملّة شرعًا أنّها: اسمٌ جامعٌ لما شرعه اللّه سبحانه لعباده على ألسنة أنبيائه ورسله[7].

5) ﴿أَبِيكُمۡ﴾: (أبو) أصْلٌ يَدُلُّ على التَّرْبيَةِ والغَذْوِ، أبَوْتُ الشَّيْءَ آبوهُ أبْوًا: إذا غَذَوْتُهُ، وبذلك سُمّيَ الأبُ أبًا[8]، والأب أيضًا: الوالد، ويسمّى كلّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا[9]، ومعنى أبوّة إبراهيم ﷺ للمؤمنين في الآية أنّه أبو رسول اللّه ﷺ، وهو كالأب لأمّته، أو لأنّ أكثر العرب كانوا من ذرّيته فغَلَبوا على غيرهم، وقيل: معنى أبوّته كونه مقدّمًا في التّوحيد، مفيضًا على كلّ موَحّد، فكلّهم من أولاده[10].

---

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جبو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جبى)، والراغب، المفردات: (جبى).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 130، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حرج).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصّل: (ملل).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: (ملل).
(6) الفيّومي، المصباح المنير: (ملل).
(7) الراغب، المفردات: (ملل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبو).
(9) الراغب، المفردات: (أبو).
(10) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.

6) ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾: (سمو) أصلٌ يدل على العلو، يقال سموت، إذا علوت[1]، والاِسْمُ: ما يعرف به ذات الشيء، وأصله سِمْوٌ، بدلالة قولهم: أسماء وسُمَيٌّ، وأصله من السُّموِّ وهو الذي به رفع ذكر المُسَمَّى فيعرف به[2]، ومعنى ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ في الآية أنّ الله ﷻ اختصّ المسلمين بهذا الاسم مِن قبلُ في الكتب المنزَّلة السّابقة، وفي هذا القرآن[3].

7) ﴿شَهِيدًا﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ، لا يخرج شيء من فروعه عنها، من ذلك الشّهادة، يَجْمَعُ الأصولَ الّتي ذُكِرَتْ من الحضور، والعلم، والإعلام، يقال: شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً، والمشْهَدُ: محضَرُ النّاسِ[4]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، أي: ما يغيب عن حواسّ النّاس وبصائرهم وما يشهدونه بهما[5]، فيكون معنى ﴿شَهِيدًا﴾: شاهدًا بقول صادر عن علم حَلَّ بمشاهدة بصيرة أو بصر[6].

8) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾: (عصم) أَصْلٌ يَدُلُّ على الإمساك والمنْع والملازمَة، فكُلُّ مانع شيئًا، فهو عاصمُهُ، والممتنع به معتصم به، والعِصمة: كلّ شيء اعتصمتَ به، ولذلك قيل للحبل: عِصام، وللسّبب الّذي يتسبّب به الرّجل إلى حاجته: (عصام)، والاعتصام: التّمسّك بالشّيء، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103]، أي: وتمسّكوا بدين الله الّذي أمركم به، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ معناه التّمسّك بسببه، وبدينه وطاعته، وطلب النّجاة والمنعة به[7].

9) ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: (ولي) أصلٌ يَدُلُّ على قُربٍ، والمولى يُطلق بإزاء معانٍ: فالمولى: النّاصرُ والمُنْعم وابن العمّ والحليف، وكُلّ من تولّى أمرك فهو مولاك، والولاء يحصل لما فيه من معنى القُرب من حيث النّسب، ومن حيث الدّين ومن حيث الصداقة والنّصرة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).
(2) الراغب، المفردات: (سمو).
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 341.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الراغب، المفردات: (شهد).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شهد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 634/ 5، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 141/ 2، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (عصم).

والاعتقاد، والولي والمولى يستعملان في كلّ ذلك[1]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾ [محمد: 11]، فالله مولى المؤمنين بمعنى أنّه ناصرهم، والقائم بأمرهم.

10) ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾: (نصر) أصلٌ صَحيحٌ يدلُّ على إتيانِ خيرٍ وإيتائِهِ، ومنه: نصر الله تعالى للمسلمين؛ وهو إيتاؤهم الظَّفَرَ على عَدوِّهم[2]، والنُّصرَة: حسنُ المعونة[3]، وتأتي بمعنى: النّجية والتّخليص[4]، والنّاصر: المُعين، فيكون معنى قول الله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أنّه نعم المعين للمسلمين في جهادهم على الكافرين، فهو الموثوق منه بألّا يُسْلِم أولياءه ولا يخذلهم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اصطفاء الله سبحانه المؤمنين للقيام بنشر الدّين وتبليغه لسائر العالمين

عطفت الآية مجموعةً من الأوامر على الآية السّابقة، وفيها أمر الله سبحانه المؤمنين بأن يُجاهدوا أنفسهم، ويقوموا قيامًا تامًّا بأمر الله، لدعوة الخلق إلى سبيله، والجهاد بالأموال والأنفس، مخلصين فيه النيّة لله ﷻ، مسلمين له قلوبهم وجوارحهم، فهو الذي اصطفاهم لحمل هذا الدّين، وقد منَّ عليهم بأن جعل شريعته سمحة، ليس فيها تضييق ولا تشديد في تكاليفها وأحكامها، كما كان في بعض الأمم، وهذه الملّة السمحة هي ملّة أبيكم إبراهيم عليه السلام، وقد سَمّاكم الله المسلمين مِن قبلُ في الكتب المنزَّلة السّابقة، وفي هذا القرآن، وقد اختصَّكم بهذا الاختيار؛ ليكون خاتم الرّسل محمد ﷺ شاهدًا عليكم بأنّه بلَّغكم رسالة ربّه، وتكونوا شهداء على الأمم أنّ رسلهم قد بلَّغتهم بما أخبركم الله به في كتابه، فعليكم أن تعرفوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والفيومي، المصباح المنير: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).
(3) الخليل بن أحمد، العينُ: (نصر).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصر).
(5) الحسين بن الحسن الحَلِيمي، المنهاج: 1/ 205.

لهذه النّعمة قدرها، فتشكروها، وتحافظوا على معالم دين الله بأداء الصّلاة بأركانها وشروطها، وإخراج الزّكاة المفروضة، وأن تلجؤوا إلى الله ﷻ، وتتوكّلوا عليه، فهو نِعْمَ المولى لمن تولّاه، ونعم النّصير لمن استنصره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل بالواو:

الصلاة عمود الدّين، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله

وُصل قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦٓ﴾ بما قبله بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميل لأنواع العبادات المذكورة في الآية السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾، فبعد الأمر بحمل النّفس على العبادات البدنية والمالية أمر بجهاد السّيف؛ لأنّه أساس الدّين وذروة سنامه، والعلاقة بين الصلاة والجهاد علاقة تكامليَّة، فإنَّ الصلاة إصلاح النّفس والذات، والجهاد إصلاح الآخر والناس، والمسلم لا يستقيم حاله ما لم يجتهد في الأمرين، فإنَّ نفع المؤمنين يعمُّهم ويعمُّ غيرَهم من العباد، ولا تقتصر عبادةُ المؤمنين على العبادة الذّاتيَّة، بل تتعدّاها إلى العبادة الكبرى في دعوة النّاس للدُّخول في سياج الإسلام، ومن قصَّر في الأولى قصَّر في الأخرى، ومن أهمل الثّانية لم يُحقِّق شروط الأولى.

بلاغةُ الأمر بصيغة المفاعلة:

بذل الجهد في نشر الدّين وقتال أعداء المسلمين

جاء الأمر بالجهاد في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦٓ﴾ بصيغةِ المفاعلةِ؛ لأنّ المؤمن يبذل جهده في الدّعوة إلى الله، والمقاوِم من الكفّار يبذل جهده في الصدّ عن سبيل الله، ومقاومة الحقّ، فبينهما مدافعةٌ ومجابهة؛ فالجهاد حقيقة عرفية في قتال أعداء

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.

المسلمين في الدّين لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدّفع عنه كما فسّره النبيّ ﷺ بقوله: "من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه"[1]، وعليه فالمجاهدة بذل الوسع والجهد في سبيل نشر دين الحقِّ، ودفع صولة الباطلِ وأهل الكفر، ولا يكون هذا إلّا بالمدافعةِ والمجابهة.

معنى حرف الجرّ ودلالته:

إخـلاصُ النّـيّـةِ شـرطٌ في إعـلاءِ كلمةِ الله تعالى

استعمل النَّظم الكريم حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦٓ﴾، ومعناه السببيّة، أي: الجهاد لأجل ذات اللّه وابتغاء مرضاته، وذلك كما في الحديث الشريف: "دخلت امرأة النّار في هرّة"[2]، والإتيان بـ ﴿فِي﴾ بدل (الباء) أو (من) فيه معنى إحاطة اللّه تعالى بالجهاد بأن يكون كلّه للّه تعالى[3]، وإذا كان على حذفِ المضاف والتقدير: (في سبيل اللّه)؛ فحرف الظَّرفيَّة على حقيقته.

نكتةُ حذف المضاف:

تعظيم المهابة في قلوب العباد

في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦٓ﴾ ذُكر اسم اللّه الأعظم دون أن يُضاف إليه (سبيل)، فهو على حذف المضاف؛ وذلك لإبراز أثر اسم اللّه الأعظم الجامع لأسمائه الحسنى، والغرض استحضار عظمة اللّه الجامعِ لِصفاتِ الكمالِ، في مواطن الوغى.

دلالة التعبير بالمفعول المطلق:

الـجـهـادُ الـحـقُّ هـو الـكـامـل في الـذّات والأقـوال والأفعال

انتصب لفظ ﴿حَقَّ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦٓ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق المبين للنوع؛ لإضافته إلى المصدر وهو ﴿جِهَادِهِۦٓ﴾، والغرض منه بيانُ نوع الجهاد الذي يأمر اللّه به عبادَه المؤمنين، وهو الجهاد الحقّ بمعنى الخالص، أي

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (123)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1904).

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3248)، ومسلم صحيح مسلم، الحديث رقم: (6931) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5035.

الجهاد الذي لا يشوبه تقصير في ذات اللّه سبحانه[1]، ولا يلحقه رياءٌ في طلب رضا النّاس وإعجابهم، بل هو جهاد كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله.

بلاغة المركب الإضافي ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾:

كلُّ جهادٍ خالٍ من الإخلاصِ واستكمال الشُّروطِ فعبثٌ ولعب

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ إضافة الصفة ﴿حَقَّ﴾ إلى الموصوف ﴿جِهَادِهِۦ﴾، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: (جهادًا حقًّا) فعُكس، وأضيف الحقُّ إلى الجهاد مبالغةً؛ ليفيد أنّ هناك جهادًا واجبًا القيام بموجبه وشرائطه على وجه التّمام والكمال بقدر الوسع والطّاقة[2]، فألفاظ (كلّ) و(جدّ) و(حقّ) إذا وقعت تابعةً لاسم جنس، مضافة لمثل متبوعها لفظًا ومعنًى، نحو: (أنت عالم كلّ عالم) أو (جدّ عالم) أو (حقّ عالم) أفادت أنّه تجمّع فيه من الخِلال ما تفرّق في الكُلّ، وأنّ ما سواه باطل أو هزل[3]، أي: أنَّ الجهاد الذي لا يكون حقَّ الجهاد في خلوصه من الشوائب، وخلوه من النواقص، وتكديره بالرياء، فهو ليس بجهادٍ حقٍّ، بل هو أقرب إلى العبث واللعب.

توجيه إضافة الجهاد إلى الضمير:

لما كان الجهاد في سبيل الله تعالى صحَّت إضافته إليه

أضيف لفظ الجهاد في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ إلى الضمير العائد على اللّه ﷻ، وكان القياس: حقّ الجهاد فيه، أو حق جهادكم فيه، كما قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًّا باللّه من حيث إنه مفعولٌ لوجهه، ومن أجله، صحَّت إضافته إليه سبحانه[4]، ويشهد لذلك أنّه لمّا سُئل رسول اللّه ﷺ: يا رسول اللّه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 348.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 536.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 278.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 173.

الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[1].

توجيه فصل جملة ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾:

جملةُ التَّعليل بيانٌ للسّابق وتوكيدٌ

فُصلت جملة: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها واقعةٌ موقعَ العلّة، لِما أُمِروا به ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾، أي: لأنّه لمّا اجتباكم، كان حقيقًا بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها[2]، فالجملة تعليلٌ مبيِّن للسّابق، كأنه قال: لأنَّه اجتباكم، والبيان من موجبات الفصل، ويصح أن تكون الجملة حالًا من لفظ الجلالةِ.

دلالة ضمير الفصل:

الله وحده من يجتبي عباده

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ استعمال ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، والغرض منه تفخيمُ قدره سبحانه، واختصاصه بالاجتباء، فهو وحده من يجتبي من عباده من شاء لا غيره، وقد اختاركم لدينه ونصرته، وفي هذا تنبيهٌ على ما يقتضي الجهادَ ويدعو إليه[3].

نكتة التعبير بصيغة الماضي:

اختصاص أمّة محمد ﷺ بالتكريم من القديم

آثر النَّظم التعبير بصيغة الماضي: ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تحقّق ذلك من القديم، فأمّة محمد ﷺ هي الأمة المرحومة المختارة للتوحيد والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، فقد زيّن الله هذه الأمّة بزينة الخواص قبل أن يوجدها، وقد سبقت لها من الله تعالى الخصوصيّة في الأزل[4].

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (123)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1904).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 349.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 122.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 537.

دلالةُ الخطاب في فعل ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾:

الـــخـــطـــابُ مـحـمـولٌ على الصَّحابةِ ومرادٌ به غيرهم ممَّن جاء بعدهم

جاء التعبير بمفردة الاجتباء وهو: الاصطفاء والاختبار، أي هو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه، والخطاب إمّا أن يكون موجَّهًا لأصحاب رسول الله ﷺ أصالة، ويشركهم فيه كل من جاء بعدهم بحكم اتحاد الوصف في الأجيال كما هو الشأن في مخاطبات التشريع، وهو الظاهر، وإمّا أن يكون محمولًا على معنى التفضيل على الأمم، فيكون ملحوظًا فيه تفضيل مجموع الأمة على مجموع الأمم السابقة الراجع إلى تفضيل كل طبقة من هذه الأمة على الطبقة المماثلة لها من الأمم السالفة[1].

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ للعطفِ على الاجتباء، أي: جاهدوا في الله حق الجهاد فيه لأنَّه اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج.

بلاغة النفي بأداة (ما):

النَّـفـي إذا عـمَّ أكَّـد وإذا أكَّـد حقَّق المقصود

آثر النَّظم الكريم النَّفي بأداة (ما) في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾؛ للتَّأكيدِ على عدم وجود أيِّ حرجٍ في الدّين، وذلك لأنّ في حرف (ما) من معنى التّأكيد ما ليس في غيره، كما قال سيبويه: "وإذا قال: (لقد فعل)؛ فإنّ نفيه: (ما فعل)؛ لأنّه كأنّه قال: (والله لقد فعل)، فقال: (والله ما فعل)"[2]، فهي آكد في النفي من (لم)[3]، وسرُّ التَّأكيد عموم النَّفي، إذ تعمُّ أداةُ النَّفي كلَّ مقصودٍ بالنَّفي، كأنَّه قال: فما جعل أدنى جعلٍ في الدين من حرج، فعمَّ كلَّ حرجٍ يدخل تحت لواء النَّفي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 349.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(3) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

براعة اختيار مفردة الجعل:

أحكام الجهاد خاضعةٌ لمصالح الأمّة ومقدّراتها وأولوياتها

آثر النظم الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ استعمالَ فعل ﴿جَعَلَ﴾، دون أن يقول: (ما شرع لكم في الدين حرجًا)، وذلك لبيانِ أنَّ الشرع لا يصير إلى حالة الحرج، فإنَّ ما شُرع في الجهاد من أحكام، فلا تؤول إلى الحرجِ بتاتًا، وذلك أنَّ أحكام الجهاد لا تخضع لحالةٍ واحدةٍ، بل لها حالات كثيرة، وتتشابه وتتشابك، وللجهاد فقه مآلات وأولويات وواقع، وهو مرتبطٌ بوليِّ أمر المسلمين، واستعداد الأمَّة للقتال، فالأصل في أحكامه أن تكون غير عسرة، ولا شاقَّة، وأن تكون بتكييفٍ فقهي مقاصدي مرفوعٍ عنه الحرج، ولذلك قال: ﴿وَمَا جَعَلَ﴾؛ ليُعلم أنَّ الله تعالى لا يريد الحرج لهذه الأمَّة في أحكام الجهاد، ولا يُريد من الأمة أن تتكلّف فوق طاقتها في ذلك.

دلالةُ استعمال حرف الاستعلاء:

رفع الحرج في واجبات الدّين وتيسيره على المكلّفين

أُشيرَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ إلى خلوّ تكاليف الدّين وواجباته من الحرج والضّيق، وذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ﴾، فإنّ عبارة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ من الأساليب الخبرية الدالّة على الوجوب: كالأمر، والتصريح بالإيجاب، والفرض، والكَتْب، ولفظة (حقٌّ على العباد، وعلى المؤمنين)[1]، بل هو من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان عَلَيَّ كذا فقد وكَّدَهُ وأوجبه[2]، فنفى الله بذلك الحرج في واجبات الدّين وتكاليفه جميعًا.

معنى ﴿فِي﴾ في الآية:

أحكامُ الدين خاليةٌ من العسر مفضيةٌ إلى اليُسر

استعمل حرف الجرّ ﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ للدلالة على الظّرفية، فالدّين الذي ارتضاه الله

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 1307.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/ 374.

لعباده المؤمنين لا يحتوي في ثنايا تكاليفه وشرائعه على أيّ عسر، فقد يسّر الله على عباده المؤمنين حمل هذا الدّين والالتزام بأحكامه السّمحة، فمن تأمَّل دينَ الله تعالى وجده خاليًا من العسر والحرج، مفضيًا إلى اليُسر والبشارة.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

جاء لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ معرّفًا في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، والمقصود به العهد الذهني، أي: دين الإسلام، فقد رفع الله الحرج والضّيق عن هذه الأمّة في جميع أمور دينها أصولًا وفروعًا، ولم يثقلها بتكليف ما يشقّ القيام به كما كان على الأمم السّابقة[1].

اليُسر صفةٌ لازمةٌ لدين الإسلامِ

فائدةُ حرف ﴿مِنْ﴾:

استعملت الآية حرف ﴿مِنْ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ للمبالغة في عموم النفي؛ فكأنَّه قال: (ما جعل عليكم أدنى حرج).

توجيهُ المجازِ في مفردةِ ﴿حَرَجٍ﴾:

لفظُ ﴿حَرَجٍ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مجازٌ، فإنّ الحرج مأخوذٌ من الحَرَجَة، وهي الشجر الملتف المتضايق، فأُطلق على عُسر الأفعال تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، ثُمَّ شاع ذلك حتّى صار حقيقة عرفيَّة في الضّيق[2]، وهذا الذي يُقال فيه مجازٌ تُنوسي معناه الأصلي، وعومل معاملة الحقائق.

بعضُ المجازات أصبحت حقائقَ عرفيَّة بكثرةِ الاستعمالِ

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرَجٍ﴾:

ورد في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ لفظ ﴿حَرَجٍ﴾ نكرة، والغرض من تنكيره الإبهام، فلم يجعل الله أدنى

رحمة الله بالمؤمنين برفع أدنى حرج في أمور الدّين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 135، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 350.

حرج في أمور الدّين، ولم يشدد على هذه الأمّة شيئًا كما شدّد على من قبلها، فمن ذلك: قبول توبة المؤمنين إذا ندموا وأقلعوا، ولم يجعل توبتهم قتل أنفسهم، وإذا أذنب الشخص منهم ذنبًا، ستره الله ولم يفضحه في الدنيا، بأن يجده مكتوبًا في جبهته أو على باب داره، كما كان فيمن قبلهم، وجعل النجاسة تُزال بالماء دون قطع محلّها، وغير ذلك من التيسير[1].

نكتة تقديم شبه الجملة:

الاهتمام بتشريعات الدّين وإزاحة أعذار المكلّفين

قُدّم الجار والمجرور ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ على المفعول؛ للاهتمام بتشريعات الدّين وإزاحة أعذار المكلّفين في عدم القيام بتكاليفه وشرائعه، ومن ذلك تشريعه للرُّخَصِ وكون المشقّة تجلب التيسيرَ، وإنّه سبحانه لم يبتلِ عبده بشيء من الذنوب إلّا وجعل له مخرجًا منها إما بالتّوبة أو بالكفّارة[2]، وقد اعتبر بعض العلماء سياق الآيات السابقة، فقال: إنّ فيه إشارةً إلى أنّ فرضيّة الجهاد مرفوعة عن أصحاب المعاذير وقت عذرهم، وهي في الوقت ذاته قاعدة عامة في معاني الشريعة الإسلامية[3].

فائدة استعمال مفردة ﴿مِّلَّةَ﴾:

الملّة لا تضاف إلّا إلى النبيّ الّذي تسند إليه، وهي أعمُّ من الدين

آثر النظم الكريم استعمال مفردة ﴿مِّلَّةَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ دون غيرها من الألفاظ القريبة كالدّين، وذلك لأنّ الملّة هي اسم لما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملة لا تضاف إلّا إلى النبيّ الّذي تسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف: 38]، ولا يكاد

(1) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 92.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 255.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5036.

يوجد مضافًا إلى اللّه تعالى ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ، ولا يُستعمل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها؛ فلا يقال: مِلّة اللّه ولا مِلّتي ومِلّة زيد، كما يُقال: دين اللّه، وأصل الملّة من مَلَلْتُ الكتاب، ويُقال الملّة اعتبارًا بالنبيّ الّذي شرعها، والدّين يقال اعتبارًا بمن يقيمه إذا كان معناه الطّاعة[1].

توجيه نصب ﴿مِّلَّةَ﴾ ودلالتها البلاغيّة:

أثر تنوّع المعاني الدلاليّة في تعدّد التخريجات الإعرابية

ورد لفظ ﴿مِّلَّةَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منصوبًا، وقد قيل في توجيه نصبه: إنّه منصوب على المصدريّة، بفعل دلّ عليه ما قبله من نفي الحرج، بعد حذف مضاف، أي: وسّع دينكم كتوسيع ملّة أبيكم إبراهيم، أو على الإغراء بتقدير: (اتبعوا أو الزموا)، كأنَّه قال: (اركعوا والزموا مِلّة إبْراهيم)[2]، أو الاختصاص بتقدير (أعني) ونحوه، أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله[3].

وأبدى بعض العلماء وجهًا بديعًا في بلاغة النصب، وهو أنّ للإسلام أحكامًا كثيرةً ولكنَّه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشّرائع الأخرى من دين إبراهيم، فجعل كأنّه عين ملّة إبراهيم، فعلى هذا الاعتبار يكون انتصاب ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على الحال من الدّين، باعتبار أنّ الإسلام حوى مِلّةَ إبراهيمَ[4].

توجيه إضافة ﴿أَبِيكُمْ﴾ إلى الضمير:

عظمةُ إبراهيم عليه السلام تجعله في مقامِ الأب للأمّة

أُضيف لفظ (الأب) في قَوْله تَعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى ضمير المخاطبين، فقيل في بيان وجه أبوّته أقوال: منها أنّه جُعِلَ أباهم؛ لأنّه أبو رسول اللّه ﷺ، وهو كالأب لأمّته، من حيث إنّه سببٌ لحياتهم الأبديّة، أو لأنّ أكثر العرب كانوا من ذرّيته فغَلَبوا على

(1) الراغب، المفردات: (ملّة).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 231.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 350.

غيرهم، وقيل: معنى أبوّته كونه مقدّمًا في التّوحيد، مفيضًا على كلّ موَحّد، فكلّهم من أولاده، وقيل: يجوز أن يكون الخطاب للنبيّ ﷺ على طريقة التّعظيم؛ كأنّه قال: ملة أبيك إبراهيم.

وبعض العلماء اعتبر سياق الآية، فإنّه إن كان الخطاب موجّهًا إلى الذين صحبوا النبيّ ﷺ فإضافة أبوّة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمّة؛ لأنّ غالب الأمّة يومئذ من العرب المضريّة، وأمّا الأنصار فإنّ نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم ﷺ؛ لأنّهم من العرب القحطانيين على أنّ أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قبل الأمّهات.

وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أُبوّة إبراهيم لهم على معنى التّشبيه في الحُرمة واستحقاق التّعظيم كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، ولأنّه أبو النبيّ محمد ﷺ، ومحمّد ﷺ له مقام الأبوّة للمسلمين(1).

توجيه المجاز في لفظ ﴿أَبِيكُمْ﴾:

إطلاق الأب على الجدّ مجازٌ بمعنى أصله، فيكون مجازًا مرسلًا علاقته السّببية، ويحتمل أيضًا أن يكون استعارة؛ لأنّ كون الرسول ﷺ أبًا لأمته بناء على التّشبيه، أي: كالأب لأمّته من حيث إنّه سبب لحياتهم الأبديّة(2).

الرّسول أب لأمّته وسبب لحياتها الأبديّة

تعيينُ مرجع الضّمير وأثره في بيان معنى جملة الفصل:

ضمير الفصل في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إمّا أن يكون راجعًا إلى إبراهيم ﷺ، فإنَّ لكل نبيّ دعوةً مستجابةً وهو قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128] فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد ﷺ، وتكون جملة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ حالًا من إبراهيم ﷺ، أي اتبعوا ملة إبراهيم حال أرادكم مسلمين لله تعالى.

تشريف المسلمين بتسميتهم من ربّ العالمين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 350.
(2) القونوي، الحاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 125.

وإمّا أن يكون راجعًا إلى الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، وهذا الوجه أقرب لأنّه تعالى قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فبيّن أنه سمّاهم بذلك لهذا، فتكون جملة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تابعة للتعليل السّابق، أي: لأنه اجتباكم وسماكم[1].

نكتةُ التعبير بصيغة الماضي:

استُعمل في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فعل ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق ذلك من القديم، فقد خصّ الله أمّة النبيّ ﷺ بهذه التسمية في الأزمان المتقدّمة قبل إنزال هذا القرآن، فنوّه بذكرهم والثناء عليهم في كتب الأنبياء السابقين لنبيّنا الكريم[2].

اختصاص المسلمين بهذه التّسمية من القديم

دلالة إضافة الفعل إلى الضمير:

أُضيف الفعل (سمّى) في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إلى ضمير المخاطبين تشريفًا لأمّة النبيّ ﷺ، وامتنانًا على المسلمين بتكريمهم من القديم بالاجتباء والاختصاص بالفضل، ممّا يستوجب عليهم شكر هذه النعم بأنواع العبادات، وهذا محمولٌ على وجهي عود الضَّمير المذكورين آنفًا.

تشريف أمّة النبيّ الكريم باسم الإسلام

توجيه التعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

ورد لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ معرّفًا بـ (ال) الدالّة على العهد، فقد سمّى الله أمّة النبيّ ﷺ بهذا الاسم في كتب الأنبياء السّابقين، وفي هذا القرآن العظيم.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بلفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛

اختصَّت أمّة الإسلام بهذا الاسم فلا يُشاركُها فيه أحدٌ من العالمين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 256، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 538.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 102.

للدّلالة على أنّ الله تعالى خصّهم باسم الإسلام مشتقًّا له من اسمه ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23]، مع ما خصّهم به من اسم الإيمان اشتقاقًا له من اسمه المؤمن، فأثبت لهم هذا الاسم في كتبه، واجتباهم لاتّباع رسوله[1]، والإيمانُ وصفٌ يشترك فيه كثيرٌ من أصحاب الأديان، فيزعمون أنّهم مؤمنون، بخلاف الإسلام فهو اسمٌ علمٌ على هذا الدّين، ففي هذه التّسمية خصوصيَّة لهذه الأمَّة به، ويدخل فيه جميع المسلمين من لدن آدم ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن انحرف عن هذه الملَّة التي جاء ختامُها في هذا القرآن؛ فقد خرج عن الجادَّة، وعُدَّ من غير المسلمين.

فائدة ذكر شبه الجملة:

قُيّد فعل تسمية هذه الأمة بالمسلمين بقيد: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، والظرف ﴿قَبۡلُ﴾ إذا بُنِيَ على الضمّ كان على تقدير مضاف إليه منويٍّ بمعناه دون لفظه، والاسم الّذي أضيف إليه ﴿قَبۡلُ﴾ محذوف، وبُنِيَ ﴿قَبۡلُ﴾ على الضمِّ إشعارًا بالمُضاف إليه، والتّقدير: من قبل نزول القرآن، وقرينة هذا التَّقدير؛ قوله تعالى: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾، أي: (وفي هذا القرآن)، وفي ذلك إشعار إلى أنّ هذه التسمية ثابتة في الأزمان المتقدمة قبل إنزال هذا القرآن، تنويهًا بذكرهم والثناء عليهم في كتب الأنبياء السابقين لنبيّنا الكريم[2].

تسمية هذه الأمّة بالمسلمين ثابتةٌ قبل نزول القرآن وفيه

معنى الواو ودلالتها:

عُطِف قَوْله تَعالى: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ على الظرف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، فقد خصّ الله المسلمين بهذه التسمية في كتب السابقين وفي هذا القرآن الكريم.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

استُعمل حرف الظّرفيّة في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ

تسمية القرآن للمسلمين ثابتةٌ راسخةٌ لا يُشكّك فيها إلا جاهلٌ أو حقود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 351.

مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾، لبيانِ أنَّ هذا التَّسميةِ منتشرةٌ فيه، ثابتة راسخةٌ لا يُشكِّك فيها أحدٌ، فقد احتوى القرآن الكريم على تسمية المسلمين في كثيرٍ من آياته نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64]، وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: 12].

براعة الإشارة بالقريب:

القرآن الكريم قريبٌ من المسلم فإذا أُشير إليه سارع إلى الذهنِ

جاء التَّعبير عن القرآن الكريم باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾؛ لحضورِ القرآن بين أيديهم وفي علمهم، ولاستحضارهم تلك التَّسمية العظيمة، وللإشارة بأنَّ تسمية القرآن باسم الإشارة القريب يُشعر بضرورة أن يكون القرآن قريبًا من المسلم، فيُشار إليه بهذا، ولا تنصرف الإشارة إلّا إليه كما في قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: 4]، وقيل ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ تقديره: (وفي هذا بيان تسميته إيّاكم المسلمين)[1].

نوع اللّام ومعناها بحسب تعلقها:

اللّامُ لتعليل التَّكليف بأحكام الإسلام وشرائعه

دخل حرف اللام على فعل الكون في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، وقد اختُلف في دلالته ومتعلَّقه، فالجمهور على أنّ الغرض منه التّعليل، أي: لأجل أن يكون الرسول شهيدًا عليكم، ومُتعلَّقها إمّا بقوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أو بقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، أي: ليكون الرسول محمد ﷺ شهيدًا على الأمّة الإسلامية بأنَّها آمنت به، وتكون الأمَّة الإسلامية شاهدة على الأمم بأنّ رسلهم بلَّغوهم الدعوة[2].

أو يتعلّق حرف اللّام بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾، فيكون المعنى: جاهدوا لأجل أن يكون الرسول شهيدًا عليكم بأنّكم بلَّغتم وأدّيتم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 122، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 351.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 103، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 351.

الأمانة الّتي أودعها الله ونبيّه إيّاكم، فيشهد الرّسول بأنّكم أدّيتموها حقّ أدائها، ورعيتموها حقّ رعايتها[1]، وذهب الصّاويّ إلى أنّ اللام هنا متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ ومعناه العاقبة[2]، أي: سماكم المسلمين لتكون العاقبة بأن يشهد عليكم الرسول، وهي في المعنى آيلة إلى معنى التَّعليل.

دلالة التَّعبير بصيغةِ المضارع:

جاء فعل (يكون) في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على الاستقبال، بمعنى أنّ الرسول ﷺ سيشهد يوم القيامة على أمّته.

فائدة إيثار لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

العِبرة بالرسالة لا بوصف الرسول المجرَّد عنها

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الرسول في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ للدلالة على العبرة باتِّصافه بالرسالة من عند الله إلى أمته[3]، وإشعارًا بأنّ العبرة هي الإيمان برسالة الرّسول، وأنّ المقصود هو الشهادة على من آمن برسالته وعلى من كفر بها يوم الجزاء، فمضمون الرسالة هو عبرة الإيمان والاستسلام والخضوع، فذكر الوصف وأراد مضمونه ودلالته.

دلالة صيغة ﴿شَهِيدًا﴾:

الشّهيد أبلغ وأقوى دلالة من شاهد

آثر النظم صيغة (فعيل) في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ وهي صفة مشبّهة من الشّهادة، التي تدلّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[4]، وقد أوثرت هذه الصيغة دون صيغة (شاهد) لما هو معلوم من أنّ الصّفة المشبّهة أبلغ من اسم الفاعل؛ لأنّها تفيد الثّبوت، في حين يفيد اسم الفاعل مجرّد الحدوث.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5038.
(2) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 93.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 14.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

نكتة تنكير ﴿شَهِيدًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿شَهِيدًا﴾؛ للدلالةِ على التّعظيم والتّفخيم، فإنّ أمر الشَّهادة عظيم، فكيف إذا اتَّصف به سيِّد الخلق أجمعين.

بلاغةُ التَّضمين:

شهادة الرّسول شهادة تكليف ومراقبة وهيمنة

يُلحظ أنَّ صيغة ﴿شَهِيدًا﴾ تعدَّت بحرف الاستعلاء دون اللام، والتحقيق أنّ شهد إذا تعدَّت بحرف (على) إنّما تُستعمل فيما فيه مضرّة المشهود عليه، وإذا قيل: شهد له، استُعمل فيما فيه منفعة، وأوجب ههنا مقام المدح الحكم بالعكس، وأن يُضَمَّنَ الشهيدُ معنى الرّقيب والمهيمن ليفيد معنى التّزكية؛ لأنّ المزكّي لا بد أن يكون مُراقِبًا على أحوال المزَكّى، فإذا شاهد منه ما اقتضى الصلاح والرُّشد والهداية لا يشهد إلّا بعدالته ولا يصدر منه إلا تزكيته، ففي الكلام تضمين ثمّ كناية[1]، فيُفهم من ذلك أنَّ شهادته ﷺ ليست مدحًا وثناءً لهم، بل مراقبةً وهيمنةً، وهذا شأن التَّربية الجادَّة، وهو ما يتناسب مع سياق التَّكليف.

توجيه المتشابه اللفظي:

تقديم الأهمّ بحسب سياق الآية

تشابه قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143]، ففي الآيتين إثبات لشهادة الرّسول على أمّته، وقُدّمت شهادة الرّسول للأمّة هنا، وقُدِّمت شهادة الأمّة في البقرة، والنّكتة في ذلك أنّ آية سورة الحجّ في مقام التّنويه بالدّين الذي جاء به الرّسول، فالرّسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهمّ، وآية البقرة صُدِّرت بالثّناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأُمّة أهمّ[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 199، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/ 134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.

بلاغة العطف:

شأنُ الاقتداءِ أن يكونَ في الدَّعوة والشَّهادة

عُطِف قَوْله تَعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، فبعد ذكر شهادة الرّسول على المسلمين تزكية لهم، عطف عليه شهادة المسلمين على غيرهم من الأمم تنويهًا بشأنهم وتشريفًا لقدرهم، فإنَّ من شأن من يُشهد عليه ليلتزم بشريعة الإسلام، أن يقوم بواجبه تجاه غيره، فيقتدي بسنَّة سيد الأنام، في الدّعوة والشهادة.

دلالة صيغة المضارع:

جاء فعل الكون في قَوْله تَعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على الاستقبال، بمعنى أنّ هذه الأمّة ستشهد يوم القيامة على غيرها من الأمم.

دلالة استعمال حرف الاستعلاء:

تشريف المسلمين وتحذير بقيَّة الأمم من المكذّبين

آثر النَّظم استعمال حرف الاستعلاء كالمتقدِّم في شهادة الرَّسول على أمّته في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على شهادة المسلمين على غيرهم من الأمم، والشهادة على الأمم تكون لهم وعليهم، ولكنّه اكتفى في الآية بتعديتها بعلى إشارة إلى أنّ معظم شهادة هذه الأمّة وأهمّها شهادتها على المعرضين؛ فهي بمثابة الحجة عليهم؛ لأنّ المؤمنين قد شُهِد لهم بإيمانهم، ففيه تحذير للأمم أن يكونوا من المشهود عليهم، وتنويه بالمسلمين إذا كانوا بمثابة الشّاهدين على غيرِهم[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

احتمال الفاء للتفريع والفصيحة وكلاهما مقبولٌ متآيلٌ في المعنى

وُصِل قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ بما قبله بحرف الفاء الدّالّة على التّفريع، وهي الّتي تفيد أنّ الكلام بعدها مترتّب على الكلام الذي قبلها، ففُرّع على جملة ﴿هُوَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.

﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ وما بعدها هذه الأوامر، أي: فاشكروا الله بالدّوام على إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة والاعتصام بالله[1]، وتحتمل أن تكون الفاء فصيحةً، أي: الّتي تفصح عن شرط مقدّر، وتقديره: (إذا كانت لكم هذه المكانة، فاشكروا الله بإقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة، والاعتصام به)[2]، والمعنيان متقاربان، فكونها تفريعيَّة يُفضي إلى الالتزام، وإذا كانت فصيحة فكذلك الحال.

غرضُ الأمر ودلالته:

وجوب المداومة على الصّلاة وإقامة أركانها وأذكارها

أمر الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بإقامة الصّلاة، ومعنى الإقامة الدّوام، يُقال أقام الصّلاة: إذا داوم عليها، وأمّا إذا قيل أقام للصّلاة فمعناه نادى عليها بألفاظ الإقامة[3]، ويحتمل لفظ الإقامة الإتيان بها قائمة تامّة القيام والرّكوع والسّجود والأذكار، كما يحتمل إظهار الصّلاة والثّبات عليها، كما يقال: أقيمت السّوق، وهذا تشبيه بالقيام من حالة خفاء؛ قعود أو غيره[4]، ويمكن الجمع بين هذه المعاني بأن يكون معنى ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المداومة عليها، وإظهارها وإقامة أركانها وأذكارها وسائر شروطها.

غرضُ الأمر وبلاغتُه:

استعارةُ الإيتاءِ للإنعامِ بما فيه منفعةٌ

أمر الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بوجوب إيتاء الزّكاة، والمقصود بالإيتاء: الإعطاء، وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة؛ لأنّ شأن الإعطاء أن يكون تمكينًا بالمأخوذ المحبوب[5]، فمعنى إيتاء الزكاة دفعها لمستحقّيها كما بيّن الشرع.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 103، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5038.
(3) الفيّومي، المصباح المنير: (قوم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 85.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179.

بلاغة اجتباء مفردة الإيتاء دون الإعطاء:

الإيتاء يكون عن طيبِ نفسٍ وقوّة قلبٍ

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التعبير بمادّة الإيتاء دون مادة الإعطاء؛ لما أنّ الإيتاء دالّ على المجيء بيسر وسهولة[1]، ولهذا قد خُصّ هذا الفعل بدفع الصّدقة حيثما ورد في القرآن الكريم[2]، إشارة إلى ضرورة أن يربي المسلم نفسه على دفعها بيسر وسهولة وطيب من النّفس، كما أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مطاوع، تقول: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإيتاء آتاني فأتَيْتُ، وإنّما يقال آتاني فأخذت، والفعل الّذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له[3]، فاستعمل النظم القرآني أقوى اللّفظين مراعاة لأهمّية الزكاة في الإسلام.

معنى التعريف في لفظ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

إذا زُكّي المال فقد طَهُر ونما نماءَ البركة والعافية

جاء لفظ الزكاة معرّفًا في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والتعريف للعهد، فالزّكاة وإن كان معناها في اللّغة: النّماء، إلّا أنها إذا أطلقت في لسان الشّرع لا ينصرف الذّهن إلّا إلى الزكاة المفروضة المعروفة بأنّها: قدر مخصوص من مالٍ مخصوصٍ في زمن مخصوصٍ[4]، والحقيقة الشّرعية للّفظ مقدَّمة على حقيقته اللغوية، إلّا إذا وجدت القرينة الصارفة.

نكتة حذف المفعول الثاني:

حثّ المسلمين على العناية بالزكاة والانشغال بإخراجِها

حُذف المفعول الثاني للفعل ﴿وَءَاتُواْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وتقديره: (مستحقّيها)، ودليل الحذف شرعيّ، فمعلوم في الشرع أنّ الزكاة تصرف لمستحقّيها، والنّكتة البلاغية في حذفه هي بيان أهمّية المُعطى لا المُعطى له، ومعلوم إذا كان الكلام منصبًّا إلى

(1) الراغب، المفردات: (أتى).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (خسف).
(3) السيوطي، الإتقان: 2/ 368.
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (زكو).

غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَح[1]؛ فالغرض هو حثّ المسلمين على العناية بإيتاء الزكاة في حدّ ذاتها، وأمّا المستحقّون فقد بيّنت آيات أخرى أصنافهم.

نكتة اقتران الزكاة بالصَّلاة:

الصّلاة أشرف العبادات البدنية، والزّكاة أفضل العبادات المالية

اقترنت الزَّكاة بالصَّلاة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنّ بالصّلاة صلاح النّفس إذ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزّكاة صلاح المجتمع لكفاية عَوَزِ المُعوَزين، والصّلاة متضمّنة للإخلاص للمعبود، والزّكاة متضمنة للإحسان إلى عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق[2]، كما أنّ الصّلاة أشرف العبادات البدنية، والزّكاة أفضل العبادات المالية، ومجموع الصلاة والزّكاة تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق[3].

بلاغةُ العطفِ وغرضه:

تحقيق توحيد الألوهية بالجمع بين أنواع العبوديّة

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ على ما قبله بحرف الواو جمعًا لأنواع العبادة من الصّلاة والزّكاة والثِّقة به سبحانه تحقيقًا لتوحيد الألوهية، وشكرًا له على نعمة الاجتباء والإحسان، فجمع سبحانه بذلك بين التّهذيب الروحي للفرد بالصّلاة، والتعاون الاجتماعي بالزّكاة، ووحدة الصفّ بالاعتصام والاتّفاق على طاعة الله تعالى[4].

نكتة إيثار لفظ الاعتصام:

التعلّق بالله ورفض التوكّل على سواه

أوثر التعبير بفعل الاعتصام في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، وهو افتعال من العَصْم، وهو المنع من الضرّ وطلب النّجاة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 40.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 136.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.

﴿ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 43]، فأمر سبحانه بالاعتصام به، أي: بالتعلّق به والخلوص له وطلب النّجاة منه، ورفض التوكل على سواه[1]، وقد قال ابن عبّاس في تفسيرها: سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يُكره، وقال الحسن: تمسّكوا بدين الله[2].

نوع الباء ومعناها:

استعمل في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ حرف الباء، ومعناها الاستعانة، أي الاستعانة بالله سبحانه في طلب النجاة، والمنع من الضرّ، واللجوء إليه في كلّ ما ينوب العبد.

الفرق بين الاعتصام بالله والاعتصام بحبل الله:

الاعتصام بالله أعمّ دلالة، والاعتصام بحبل الله تصويرٌ للمقصود

أمر الله سبحانه بالاعتصام به في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، وأمر بالاعتصام بحبله في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: 103]، ويتجلّى الفرق بينهما في علاقة الإطلاق والتقييد، فموضع الحجّ أطلق في الاعتصام بالله سبحانه، فيشمل استمساك المؤمنين بأوامره ونواهيه، والاستمساك بذاته العليّة لا يفكرون إلا فيه، ولا يبتغون غيره، ويلتفون حول شريعته غير منفصلين عنه، وكذلك الالتجاء إلى كتابه وسنّة رسوله، والتمسّك بجماعة المسلمين[3].

أمّا موضع آل عمران فقد قيّد الاعتصام بحبل الله خصوصًا، على اختلاف عبارة المفسّرين في المراد بِحَبۡلِ اللّه[4]، كما يظهر الفرق بينهما في باب البيان، فموضع الحجّ مجاز بالحذف فيكون الاعتصام بالله اعتصامًا بدين الله وأوامره ونواهيه، وأمّا موضع

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 540.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5038.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 483.

آل عمران فالاعتصام بحبل الله يحتمل أن يكون من باب التّمثيل، مثل استظهاره به ووثوقه بإمساك المتدلّي من مكان مرتفع بحبل وثيق يُؤمن انقطاعه، ويحتمل أن يكون من باب الاستعارة، استعار الحبل للعهد والاعتصام للوثوق بالعهد[1].

نكتةُ إظهار اسم الله الأعظم:

إخلاص الأعمال للمتفرّد بصفات العظمة والكمال

أُظهر لفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لاستحضار عظمته سبحانه فهو المحيط بجميع صفات الكمال في جميع ما أمر به من المناسك والعبادات التي تقدّمت من صلاة وزكاة وحجّ وغيرها، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتصَّةٌ به وحده سبحانه، فلا يُساوى بِهِ غَيرُه، فيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لِإحضارِ المعْنى الجامِعِ لِصفاتِ العظمة والكمالِ[2].

نكتةُ فصل جملة ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

الاعتصام بالمولى لعظيم قدرته وبديع حكمته

فُصل قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ عن الكلام الذي قبله لوجود كمال الاتّصال بينهما، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ تعليلًا لمضمون الجملة قبلها، أي معلّلة للأمر بالاعتصام به سبحانه؛ لأنّ المولى يُعتصم به ويُرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته[3]، كأنَّه قال: اعتصموا بالله تعالى، ولا تخشوا أحدًا؛ لأنَّ الله هو مولاكم، وتحتمل أن تكون الجملة حاليَّة.

دلالة استعمال ضمير الفصل:

اختصاص الله وحده بتولّي شؤون عباده ونصرة أوليائه

أوثر استعمال ضمير الفصل في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾؛ لتفخيم قدره سبحانه، واختصاصه بتولّي شؤون عباده وكفايتهم، فهو وحده من ينصرهم على كلّ من يعاديهم، بحيث

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 286.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.

يتمكّنون من إظهار هذا الدّين من مناسك الحجّ والعبادات من صلاة وزكاة وغيرها[1].

نكتةُ إيثار مفردة الولي:

نـــصـــرةُ الـلـه للمؤمنين قريبةُ الـوقـوع راسخةٌ في القلوبِ

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ بلفظ (المولى)، وأصله من الوَلي وهو يدلّ على قُرْبٍ[2]، وهو مأخوذ من الوِلايَة وهي النُّصْرةُ وحقيقتها: تَوَلّي الأمرِ، فاللّهُ تعالى وليُّ المؤمنين ومَوْلاهُمْ ينصرهم على أعدائهم[3]، وإيثار هذه اللفظة على غيرِها لبيان قرب الله تعالى للمؤمنين بنصرتهم على أعدائهم، ففيه طمأنةٌ للنفوس، وتسكين للقلوب.

دلالةُ الإضافةِ وغرضُها:

تشريف المؤمنين بـعـنـايـة ربّ العالمين

أضيف لفظ المولى لضمير المخاطبين في قَوْله تَعالى: ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ تثبيتًا للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، أي: فاعلموا أنّ الله تعالى ناصرُكم، فثقوا به ولا تُبالوا بمعاداة الكفّار[4]، كما أنّ في هذه الإضافة تكريمًا وتشريفًا لهم بكونهم في كنف الله تعالى وحفظه، فهو مولاهم لا أحدَ سواه.

نوعُ الفاء ومعناها:

تـفـريـعٌ لإنشاء الثناء على الله تعالى

وُصل قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ بما قبله بحرف الفاء الدّالّة على التّفريع، ففرّع على جملة ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إنشاء الثناء على الله بأنه أحسن مولى وأحسن نصير، أي: نعم المدبر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم[5]، أو تكون الفاء استئنافًا لإنشاء معنى الثناء على الله تعالى.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104..
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) الراغب، المفردات: (فعل).
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 59/ 3.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 353.

بلاغة صيغة المدح:

الثّناء على الله القدير بأنّه أحسن مولى وأحسن نصير

تضمّن قَوْله تَعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مدحًا وثناءً من اللّه تعالى على نفسه ﷻ، وقد جاء المدح بصيغة الفعل الجامد (نِعْمَ)، وهي من الإنشاء غير الطّلبيّ؛ لأنّه لا يستدعي مطلوبًا وقت الكلام، فهو يتحقّق وقت اللّفظ، وهو أسلوبٌ يُعبّر عن الثّناء والإعجاب بالشّيء بألفاظ معيّنة، وهذه الصّيغةُ عبارة عن جملةٍ فعليّةٍ من فعلٍ وفاعلٍ تُعرب خبرًا عن مبتدأ محذوف تقديره (هو)، وهذا المبتدأ هو الذي صيغ المدح له، ويسمّى (المخصوص بالمدح)، وهو محذوفٌ وجوبًا، وإنّما حُذِف اعتمادًا على ظهور المعنى وطلبًا للإيجاز[1]، والغرض منه في النّظم إنشاء الثناء على اللّه بأنه أحسن مولى وأحسن نصير[2].

بلاغة التّأكيد بالعطف:

اللّه مولى المؤمنين على الدوام وهو ناصرهم في كلّ حال

عُطف قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ بحرف الواو الدّال على الجمع والاقتران؛ لما في لفظة ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ من معنى النّصر الذي يوافق ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾[3]؛ فاقتضى العطف التوافق في المآل، وهو نصرة المؤمنين، بدليل الفحوى وبدليل النص الظّاهر، أي: أنه وليكم على الدَّوام، وهو ناصركم في كل حال تلجؤون إليه.

معنى التّعريف في ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾:

التّنويه بصفات اللّه العليا والتّأكيد على كمالها

عُرّف ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على العهد، فقد تقدّم المعهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، كما يفيد هذا التّعريف استغراق الصّفات

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/ 645، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/ 430.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 348.

المصاغة للمدح والدّلالة على رسوخها، فالولاية والنّصرة معروفة راسخة في الممدوح، وقد جاء المدح تنويهًا بهذه الصّفات الجليلة.

نكتةُ التعبير بصيغة (فعيل):

من نصره الله فلا غالب له

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الثّناء على نصر الله سبحانه لأوليائه بإيراد النّصر على صيغة المبالغة بيانًا إلى أنّه لا يُغْلَب من نصره[1]، فإنّ أفعال الله تعالى لا تتأثّر بالمبالغة، فتدلّ صيغة المبالغة فيها على أثر المتعلّق، فالمبالغة في النّصرة متعلّقةٌ بتأكيد انتفاء تحقّق الغَلَبِ على من أراد الله تعالى أن ينصره.

براعة ختام السورة بجملة آخر آية:

التّقوى مجلبة الخير وطاردة الضُّر والبلوى

خُتمت هذه السّورة بقَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تثبيتًا لقلوب المؤمنين وحثًّا لهم على الاعتصام به سبحانه؛ لأنّه نعم المولى لهم ونعم النّصير لهم، وأمّا الكافرون فلا يتولّاهم تولّي العناية ولا ينصرهم، وهذا الإنشاء يتضمّن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره للمؤمنين نتيجة للتّقوى وما يليها من أفعال الطاعة ممّا ذكرناه سابقًا من محور السورة، فقد انطبق بهذا آخر السّورة على أوّلها، ورُدَّ مقطعُها على مطلعها، وهذا من براعة الختام، كما هو بيّن لذوي الأفهام[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحرج والضيق والعسر:

الحرج أخصُّ دلالةً من الضّيق والعسر ضيقٌ مع صعوبة

الحَرَجُ: هو الشّديد الضَّيِّق[3]، وهو أضيَق الضّيق[4]، والحرج: ضيقٌ لا منفذ فيه، مأخوذ من الحَرَجَةِ، وهي الشّجر الملتَفّ حتّى لا

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 59/ 3.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 353.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (حرج).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/ 290.

يمكن الدّخول فيه، ولا الخروج منه[1]، وقد اجتمع اللّفظان في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، فقد ذكر لفظ الضّيق والحرج معًا؛ إذ إنّه لم يكن لفظ الضّيق وافيًا في بيان المقصود، جيء بلفظ الحرج؛ لأنّ في الحرج من معنى شدّة الضيق، ما ليس في اللّفظ الآخر، فالحرج هو المتزايد في الضّيق، فيكون أخصّ من الضّيق، فكلّ حرج ضيق من غير عكس[2].

والعُسر: من (عَسُرَ)، أصل يدّل على صعوبة وشدّة؛ فالعُسر: نقيض اليُسر[3]، وهو الضّيق والشّدة والصّعوبة[4]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185] إرادة أمر وتشريع، تتعلّق بالطّاعات لا بالمعصية[5].

الملة والفرقة والطائفة:

خـــصـــوص استعمالِ المِلّة بالدّين وعموم الفرقة والطائفة في الدين وغيره

المِلّة: السُّنة والطّريقة، وأصبحت اسمًا لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء، من حيث إنّ الأنبياء يُعلِّمونها ويسلكونها، ويوجّهون أتباعهم إلى سلوكها[6]، وبهذا الاعتبار لا تُضاف إلّا إلى النّبيّ الّذي تستند إليه، من ذلك: مِلّةَ إبراهيم، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها، فلا يُقال: مِلّةَ الله، ولا مِلّتي، ولا مِلّة زيد، كما يقال: دين الله، وديني، ودين زيد[7]؛ لأنّها تُقال اعتبارًا بمن يؤدّي الشّرع عن الله تعالى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عسر).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 76.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).
(7) الكفوي، الكليات، ص: 524.

والفِرقة: مشتقّة من التّفريق، وهي الطّائفة من النّاس المنفصلة عن غيرها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، والفريق: الجماعة المنفردة أيضًا، كقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7][1].

والطّائفة: في الأصل جماعة من شأنها الطواف، ويجوز أن يكون أصلها الجماعة الّتي تستوي بها حلقة يُطاف عليها، ثمّ كثُر ذلك حتى سمّيت كلّ جماعة طائفة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: 9]، وروي في قوله ﷺ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النّور: 2] أنّه أراد واحدًا، وقال يجوز قبول الواحد بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 122] إلى أن قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة: 122]، فأوجب العمل في خبر الطائفة، وقد تكون الطائفة واحدًا[2].

الاعتصام والتمسّك:

التمسّك عامٌّ، والاعتصام يختصُّ بطلب النّجاة

الاعتصام: مشتقّ من العَصْم: وهو الإمساك والمنع والملازمة، فكلّ مانع شيئًا، فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، والاعتصام: التّمسّك بالشّيء، والتمسّك تفعّل من المسك، وهو أصل واحد صحيح يدلُّ على حبس الشّيء أو تحبُّسه[3]، وإمساك الشيء: التعلّق به وحفظه[4]، فيزيد الاعتصام على مجرّد التمسّك بالقصد وطلب النّجاة، فهو أخصّ منه.

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/ 222.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278، والكفويّ، الكليّات، ص: 576.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (مسك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»